

العراق

صلتى بالعراق قديمة تعود إلى زمن كنت ما ازال فيه بظهر الغيب . فاني قد انحدر من جباله الشمالية إلى مصر طالباً العلم ثم مستوطناً . وكان لا يفتأ يذكر العراق ويتمدح به ويتمنى لو يعوذ مرة أخرى إلى أحضان الجبال . فلما نفست عليه الأيام ما أراد تمنى على الله أن تذهب ابنته إلى العراق لتخدم شعباً أحبه وأخلص له الوداد حتى اللحظة الأخيرة . وكانت الفكرة خلافة ، وخاصة لفتاة لم تكن قد خبرت من الحياة شيئاً ، ولا ميزت بعد بين حلوها ومرها . . . وقد كان أن اتصلت بالعراق مرة أخرى . وكم جدول في الأرض راجع منبعه !



هبطت بغداد منذ ثمانية أعوام طوال . ذهبت لأدرس في مدارسها . وكانت فكرة مشاركتي في رفع مستوى الفتاة العراقية ، ولا زالت تلهبني حماساً ، وتزيدني إيماناً بالشرق والفتاة الشرقية وتملاً قلبي بالآمال الكبار والأمانى الجسام . على أن كل ذلك لم يكن يخفى عنى قسوة ما أخذت على عاتقي من رسالة في الحياة اخترتها وفضلتها ثم آثرتها على كل الرسائل لأنها رسالة مقدسة قل من يفيا حقها من الرجال !

لم تكن فكرتي عن بغداد صحيحة ؛ ولعل السبب في ذلك راجع إلى مدرس التاريخ ومدرس الجغرافيا حفظهما الله ! أذكر أن مدرس التاريخ قال لنا إن بغداد « دار السلام » مدينة مدورة لم يبن مثلها من البلاد في العصور الوسطى . وأذكر أن مدرس الجغرافيا قال إن بغداد مدينة بناها من بناها على الضفة الشرقية من دجلة لحسن موقعها . وأذكر أن خيالي صور لي صوراً متألقة بهجة تروح فيها الجوارى وتغدو الغلمان ، يطوف بها الهمس والألحان والأنغام . ولشدها دهشت حينما لم أجد شيئاً من هذا . فبغداد ليست مستديرة اليوم

ولا مربعة . وبغداد تحتل ضفتي دجلة احتلالاً رائعاً . وبغداد آخر الأمر بلد
منكمش على العمل ، كادح ، يسير العصر ويحاول ألا يتخلف عن موكب الحياة !
طردت عن خاطري الأشباح ، شبح مدرس التاريخ ، وشبح مدرس الجغرافيا ،
وشبح ألف ليلة وليلة ، وبدأت من فوري أتصل بالواقع الملموس والتاريخ الحي
المسطور ، والجغرافيا النابضة الحية . على أن جولتك الأولى في بغداد لا تعطيك
— ولن تعطيك — فكرة قيمة عن البلدة . وهذه حال يفهمها كل مسافر وكل
رحالة . ولكنه يفسها في بغداد والعراق أكثر من أي بلد وقطر آخر . فأمر
العراق مستسر يدق عن الفهم للوهلة الأولى . وقد لا أعدو الحقيقة إن قلت إنني
أسفت ، وإن قصارى عزائي كان أنني سأبقى بها سنة دراسية واحدة لا أكثر .
ولكنني لن أعدو الواقع إن قلت إنني بقيت بها ثمانية أعوام طوال عراض
ولا يعلم الا الله متى أعود . وأكبر ظني أن ذلك لن يكون إلا اذا فرغ ما في قلبي
من حب للعراق وناشئته ، وانقض عن ذهني ما فيه من استمتاع في التقدم بالفتاة
العراقية ورفع مستواها ! وهذا — في أكبر اليقين — لن يكون !
قلت بقيت ببغداد ثمانية أعوام عرضت لي فيها من الأحداث ما قد يتنكب
بالصبور عن سبيله التي رسمها لنفسه ، وعرضت لي فيها من الفرص ما كان أيسره
جديراً أن يجعلني بأمريكا أدرس وأتم تعليمي وثقافتي منذ زمن بعيد . ولكنني
صبرت وصابت الأيام حتى اكتحلت عيني بثمار غرسي ؛ وصبرت وكأخت حتى
نجحت في عدم السفر إلى أمريكا ! والحمد لله على الفوزين !



خير لي أن أرسم لك صورة صغيرة ترى منها العراق كما أراه : كان أول
ما تعلمت من لهجة العراق كلمة « جُبَل » حينما سألت عن وزارة المعارف
و « جُبَل » هذه معناها الى الامام . وعدت أسأل عن وزارة فقيل لي ثانية ،
وثالثة ، ورابعة : « جُبَل » — الى الامام . . . ومن سار على الدرب وصل !
« جُبَل » هو شعار العراق ؛ كذلك علمتني المشاهدة والتجربة . فالعراق
يتقدم في كل مرافق حياته الاجتماعية والفكرية والاقتصادية والعمرانية
« جُبَل » دون أن ينظر إلى الخلف . فان فعل فافما ليري كم قطع من الطريق
وهي طريقة يستطيع بها أن يقدر بالضبط ما يجب عليه أن يقطعه ليلعب نهاية

الشوط دون أن يخامره اليأس أو يدب فيه الكلال، وهو في هذا أشبه شيء
 رجل يشرب كأسه الأولى، فهو ينظر إلى مقدار ما أفرغ في جوفه حتى يدرك
 مقدار ما عليه أن يكرع !

لم تكن ترى في بغداد منذ أمد قريب سافرة واحدة اللهم إلا اليهوديات
 وقليلًا من المسيحيات. تعال اليوم واشهد الصراع والتنازع بين السفور والحجاب،
 بين الجديد والقديم. لن تجده « دراميا » عنيفا كما كان في مصر أيام قاسم أمين
 ولكنك تجد أن الجديد - السفور - يتقدم « جُبل » دون مبشر يتمدح
 بمزاياه ويعدد مناقبه. السفور يتقدم تقدم الواثق الظافر. فم حاجته إلى العداء
 وإثارة البغضاء. قالت لي إحدى الصديقات عن السفور إنه أمر لو جرؤت عليه
 عراقية منذ عشرين سنة لكان مصيرها رهناً بمشيئة الجن الأحمر، ولكنها
 أقدمت على السفور فكان مصير المسكينة أن نظر لها أبوها الغاضب المحقق نظرة
 شرراء قاسية... طويلة جدا.

والتعليم هو الآخر يتقدم « جُبل »، دون توقف. واختلاط طلاب العلم
 وطالباته في المعاهد تحت أجنحة الملائكة الموكله بطلاب العلم يحدث دون أن
 تحول التقاليد أو تنور أو تنادي بفصل الجنسين، كما حدث في مصر منذ سنوات
 قلائل ! إن العراق يعلم أن التقاليد إنما هي عادات جمدت. وكيف يرضى بالعادات
 الجامدة شعب قوى يتقدم في موقف الحياة « جُبل » ؟ ! حقا أن لها سلطاناً
 قوياً لا يستهان به، ولكن هذا الفهم لها يحد من سطوتها ويكسر من شوكتها
 بحيث إننا لا نكاد نحس ببطشها أو وخزاتها حتى باحتجاجها إلا قليلاً ! تيار
 التقدم الجارف أقوى من كل شيء.

المدارس تزداد للجنسين بشكل يدعو إلى الإعجاب؛ وما أظن أن مدينة تخلو
 من مدرسة للبنين وأخرى للبنات. وأعرف مدينة أريد أن تنشأ فيها مدرسة
 للبنات فقامت قيامتها، وأجمعت الآراء على مقاومة هذا العمل « الشنيع » فما
 كان من الحاكم إلا أن استأجر بيتاً علق على بابه قطعة كتب عليها « مدرسة...
 لبنات الموظفين فقط » ! ولم يعترض أهل المدينة. فالموظفون غرباء عن المدينة
 فهم أحرار في بناتهم ! ونمت المدرسة وكبرت، وأنشئت مدرسة أخرى ثانوية
 ولكن ليس لبنات الموظفين فقط !

ولمساء بغداد جمال عجيب : ترى الموظفين، صغارهم وكبارهم، يتأبطون كتبهم

ويهرعون إلى مدارسهم حتى يستدرکوا ما فاتهم تحصيله في وقت لم تكن المدارس فيه إلا شيئاً تنظر إليه التقاليد النظرات الشذراء . يقبلون على العلم ، وينهلون من موارده ، ولو على الشموع ، ولو في البرد القارس أو الحر الخائق . . على أن أعظم ما يعجبني هو نهضة الفتاة العراقية وصحتها وتقدمها . وتلك سمات كان من الممكن للملاحظ العادي أن يفطن إليها لو أنه نظر إلى الفتاة العراقية وهي تمشي . فهي تمشي ممشوقة كالسهم فلا تلتكؤ ولا تلتكع ، ولا تخلع ، ولا التفات إلى يمين ويسار بل هدف انطلق إليه سهم مريش ! وإني لن أعددو الحقيقة إذا قلت إنه لو أتيح للفتاة العراقية تلك الفرص التي أتيحت وتتاح للفتاة المصرية - إذا فويل للمصرية من أختها ! وكثيراً ما فكرت في هذا ، وأنا أعلم الطالبات ، وأدربهن على التدريس ، وأترك لهن حرية التحدث والنقاش وإبداء الرأي ، ومعالجة شتى الأمور . وكثيراً ما أدهشني مرهن وهن يتولين مرافقهن في كفاية بحيرة !

وإن أنس لن أنسى الاعتماد على النفس . فهي مزية شعبية إجماعية ، لا يكاد يتفاضل فيها أهل العراق قاطبة . ولعل أبرز ما يصورها قصة رواها من أثق بروايته : كان له صديق عراقي يدرس معه في الجامعة المصرية . واتفق أن سارا في شارع سليمان باشا . فسأل المصري زميله العراقي : أعندكم ببغداد مثل هذا ؟ فيجيب العراقي في صبر الحليم : لا . وطفق المصري يسأل ، فطفق العراقي يجيب بلا ، حتى ضاق العراقي فسأل زميله المصري : ولكن قل لي : أعلى أكتافكم أتم قامت هذه الأشياء الجميلة التي لا نجد مثلها في بغداد ؟ وكم يملك المصريون منها ؟ وما نصيبهم من الاشتراك في هذا التقدم ؟ وكان ما قاله العراقي صحيحاً . فإن بغداد تتقدم في كل مرافقها على أكتاف العراقيين وحدهم ، وحدهم أفهم ؟ « وليُقَسَّ ما لم يقل » كما يقول أهل النحو !

أحسبني أطلت عليك . ولكن لا أريد أن أتهى من مقال هذا دون أن أعتذر إليك عن عجزى عن الإحاطة بالموضوع كله ؛ ولكنى أعتقد أن كلمة « جبَل » ستم لك ما تركته ناقصاً ، وسترسم لك ما لم أصوره « جبَل » . جاءني مصري حديث العهد بالعراق وأخبرني أن أول ما سمعه من لهجة العراق هو كلمة « جبَل » فلم أدهش . كنت أعرف ذلك ! وسألني عن معناها فتبسمت وقلت « إلى الامام » . فصاح وهو ضيق الصدر : « كل شيء جبَل ، جبَل ! شيء

يحتج . أما عندهم شيء آخر ؟ . قلت : « لا ! ! ! إن هذه أول كلمة تعلمتها وأحسبها آخر كلمة ستسأها إذا أحسنت معرفتك بالعراق » . واشتكى المصري الحديث العهد فيما اشتكى منه ، بطاء الناس في السير . قال : « امشى في شارع الرشيد . فأرى الناس يتقدمون في بطاء . أدفعهم فلا هم يندفعون ولا هم يفسحون لي الطريق » . فقلت له : « أسمعتم المثل الإنجليزى القائل : يبطء ولكن في ثقة » .

من فرج الله